تعقيبات

١. ازدواجية اللغة الشعرية

قرأت في العدد الأخير من مجلة **الكرمل** البحث القيم الذي وضعه الأستاذ حنا ابو حنا حول الشعر الفلسطيني وازدواجية اللغة (**الكرمل** ٧، ١٩٨٦، ص ٧ - ٦٩). وأكتب هذا التعقيب الموجز من بعيد لسببين: الأول لأعبر عن اعجابي بالمقال وتقديري للمجهود الذي بذله الباحث في اعداده؛ وثانيا لأسجل ملاحظة على هامش المقال. لقد لفت نظري أن البحث، رغم دقته وإحاطته، قد أغفل ذكر بعض الشعراء المحليين وتضمين نماذج من شعرهم، وأخص بالذكر الشاعر النصراوي ميشيل حداد. وملاحظتي هذه لا تنبع من تقديري لموهبة هذا الشاعر المخضرم فحسب، بل لاعتقادي أن لميشيل حداد «مدرسة» كان من بين «خريجيها» شعراء موهوبون كسهام داوود وأنطون شماس.

وبسبب إقامتي المؤقتة في الولايات المتحدة لم أجد في متناول يدي جميع مؤلفات الشاعر، ولذا فلن استطيع الآن كتابة متابعة وافية عن ازدواجية اللغة ووظائفها الغنية في شعره، بل سأكتفي ببعض التنبيهات السريعة. وجدت في المكتبة الجامعية هنا ثلاثة من

دواوين الشاعر، فاخترت منها ديوان **هأنذا أيها السيد**، وهو الديوان الخامس الذي صدر في حيفا عام ١٩٧٨. وحالما فتحته وقع نظري على قصيدة عنوانها «العرس» ومطلعها:

عِنْدما
رحل الجمال عنّا
عذّب القلب المعنّى (ص ١٠٣)

وأعترف أنني كنت سأقرأ كلمة «الجمال» بدون تشديد الميم (باعتبارها تشير الى جمال العروس مثلا)، ولكني لحسن الطالع كنت قد طالعت قبل قليل مقال أبي حنا فتذكرت ما أورده الباحث من أبيات فولكلورية يرد فيها ذكر الجمّال (مثل: عذب الجمّالْ قلبي/ يومْ نادى عَ الرحيل). وهكذا اتضح لي بأني أزاء قصيدة موزونة من بحر الرمل. ثم رحت أقلب صفحات المجموعة فتتابعت السطور ذات النكهة العامية واللغة «المزدوجة» في القصائد الموزونة والمنثورة على حد سواء، وفي ما يلي قليل من كثير:

١) في عيد الصليب
وضعنا خمس **كمشات** من الملح (ص ١١)

٢) ظلت المضامين وتغير الشكل
ومازلنا نمسح **الأجواخ** والأحذية (ص ١٤)

٣) **خلّوني** أطوِ المناديل وأعصر عيني (ص ٢٥)
٤) **أدوس** مرونة الضباب المبكر (ص ٤٢)
٥) فتهتز النجوم حولنا
«**طيب وطيب وهيه**» (ص ٦١)
٦) ولكن «**أوف مشعل**» ظلت ذروتنا (ص ٨٥).

هذه حصيلة إطلالة عابرة أثبتها هنا آملا أن اعود الى هذا الموضوع في المستقبل (وحبّذا لو سبقني الأستاذ حنا فأردف بحثه بملحق إتماما للفائدة؛ فقد أثبت لي بأنه أقدر الناس على تلمس اصداء اللغة المحكيّة في إنتاج الأدباء المحليين).

٢. من هو قسطندي داوود؟

في مقالي «الصياغة الشعرية والمضمون الجديد» (الكرمل ٢ [١٩٨١]، ص ٥٩ - ٨٠، حلّلتُ بشيء من الاسهاب الترجمة التي قام بها قسطندي داوود لقصيدة شلي

«فلسفة الحب» ونشرها في مجلة **أبولو** عام ١٩٣٣. وقد قلت في ذلك المقال أن المترجم هو أديب غير معروف، ورأيت فيه ناظما لا شاعرا. وحاولت آنذاك البحث في المصادر البيبليوغرافية عن معلومات عن هذا المترجم فلم أجد ذكرا له. ففرضت أن قسطندي هذا أديب «هامشي» قليل الانتاج والنشاط. ولكنني عثرت مؤخرا على ديوان ضخم من إنتاجه يتضمن، بالإضافة الى القصائد، معلومات عن المؤلف وحياته.

وللديوان عنوان مسجوع هو **ديوان ابن داوود شاعر آل السعود**، وقد صدر في القاهرة عام ١٩٣١، أي قبل ظهور ترجمة «فلسفة الحب» بعامين. و يعرف الناظم نفسه على الغلاف بكونه «كبير المترجمين بمصلحة السكك الحديدية والتلغرافات والتلفونات المصرية وشاعر حضرة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز بن السعود ملك الحجاز ونجد وملحقاتها وشاعر صاحب السمو الملكي الأمير سعود ولي عهد هذه المملكة».

و يضم الديوان المئات من القصائد الطويلة والمقطوعات المنظومة بالعربية، وكذلك مجموعة من القصائد التي نظمها قسطندي باللغتين الأنجليزية والفرنسية وضعها في نهاية الديوان، وتتصدر الديوان مقدمة طويلة بقلم شقيق المؤلف، الياس داوود، نعلم منها أن أخاه ولد في القاهرة عام ١٨٨١ وكان من ضمن مدرّسيه في المدرسة العبيدية الكاتب المعروف جورجي زيدان؛ ثم اتصل بالشيخ ابراهيم اليازجي وتتلمذ عليه. وقد اطّلع على الأدبين الانجليزي والفرنسي بنفسه ونظم الشعر بهاتين اللغتين. و يضيف صاحب المقدمة قائلا: «ولا يظن أحد أن قسطندي شاعر لا ناثر فانه كاتب مجيد له في الجرائد والجلات مقالات عديدة في شتى المواضيع باسم أخوانه الذين طالما كلفوه كتابتها لهم فأجابهم الى ملتمسهم كشيمته. وقام بتحرير جريدة اسبوعية ردحا من االزمن اشترط عليه صاحبا ألاّ يذكر غير اسمه (اسم صاحبها) ليكون الفضل كله راجعا اليه» (ص ٩).

أما قصائد الديوان فأغلبها في المديح والمناسبات، منها ١٤ قصيدة مطولة في مدح آل السعود، و٧ مطولات في مدح الملك فؤاد الأ ول وعشرات من القصائد في مدح الملوك والأمراء (بما في ذلك ملوك انجلترا واوروبا). ثم هناك مجموعة كبيرة من التقاريض والاخوانيات والمراثي والتواريخ الشعرية. والملاحظ أن عددا غير قليل من القصائد نُظم بناء على «طلب» أو «إيعاز» مثل «الى المحفل الأكبر الوطني المصري بايعاز أحد المحترمين» (ص ٩٦) أو «أهمية تعليم اللغة العربية للأسرائيليين، بايعاز احدهم و بلسانه» (ص ٥٥).

ويميل قسطندي داوود إلى نظم المطولات الشعرية، نذكر منها همزية بعنوان «باسم المهيمن أقدس الأسماء» (ص ٢٠ - ٢٦) ضمت ١٩١ بيتاً، وهمزية اخرى تضم ١٦٦ بيتا هنّأ بها الملك فؤاد بعودته من رحلته الأولى من أوروبا (ص ٣٧ - ٣٤). أما أسلوبه فهو أسلوب النَظّام التقليدي. ورغم خلو لغته من التعقيد، فانها في جملتها تذكر بلغة الشعر في «عصر الانحطاط»، زاخرة بالمحسنات وخاصة بالجناس اللفظي والتلاعب بالألفاظ. فعلى سبيل المثال نجده في رثائه للدكتور يعقوب صرّوف يجانس قليلا:

أرأيت في هذا الزمان صُروفا دهتِ العلومَ كفقدها صَرّوفا
(ص ١٦٩)

وفي قصيدة اخرى يؤرخ فيها لزواج الآنسة ريني ابنة الأديب الدكتور **هلال فارحي** نجده يقول متلاعبا باسم أبي الفتاة:

فلفارحي الأفراح هلّ هلالها يمحو العناءَ ضياً له لا يكسفُ
(ص ١٦٥)

ساسون سوميخ
جامعة برينستون، ١٩٨٧